



## اركان التفكير الصحيح

### اساليه وعيوبه

ليس اليق بالانسان ، على ما اعتقد ، من نعمته بنمت الحيوان للتفكير . فليس هنالك ، على التحقيق ، من صفة مفردة تجعل الانسان يقف هذا الموقف المنزول وتميزه بهذا التمييز الواضح المعالم ، في عالم الحيوان ، كهذه الصفة - صفة التفكير . واختلافها فيها عن الحيوان هو اختلاف كيف لا اختلاف كم ، على ضد باقي الصفات التي يشترك فيها والحيوان على درجات من التفاوت . فالانسان ليس بالحيوان الاجتماعي الفذ ، كما يريد البعض ، وهو ليس بالحيوان الناطق الوحيد ، كما يريد البعض الآخر ، فان كثيراً من الحيوانات له ، على وجه التسميم ، شيء من احدى صفتين الصفتين او من كليهما قل او اكثر هذا الشيء . اما ان الانسان هو الحيوان المفكر الوحيد فهذا لا شك فيه . على ان هذا لا يعني ان كل انسان ، بحكم الضرورة ، يفضل الحيوان من هذا القبيل . فان كثيرين من سمعت افهامهم واعتلت مداركهم يقفون مع الحيوان عند درجة الادراك الحسي ، فلا يفضلونه في شيء ، ويفضلهم في اشياء . وثم فئة اخرى لا تحب ان تجسم نفسها مشقة التفكير الصحيح تسير في ادمت الطرق والبن المسالك ، وهو صنف شائع في كثير من الافراد والطبقات . ولكن بالرغم من هذا كله فان الانسان بطل ، بما اخص به من مواهب التفكير ، كائنات منزل النظر . فالبحث في التفكير بحث في اسمى الصفات الانسانية واجلها خطراً

### اسلوب التفكير

التفكير من حيث الاسلوب ، على نوعين : التجريبي والعلمي . اما الاسلوب التجريبي فهو الاسلوب الذي سار عليه علماء الشرق القديم عصوراً طويلة . وهو علة البيط . في تقدم العلوم طيلة هذه العصور بالنسبة الى امتاع المدة . ان علماء الشرق استطاعوا التنبؤ عن اوقات الخسوف والكسوف ، ولكن دون ان يدركوا السعة الطبيعية لتلك ، وقدروا ان يضبطوا الى حد كبير من الدقة ، حركات القمر والشمس والسيارات ، ولكن دون ان يفهموا ذلك النظام الشامل الذي يهيمن على حركات هذه الاجرام . وقد اهدى هؤلاء العلماء الى هذه الحقائق من الملاحظات المتكررة بكثر هذه الظواهر . فالراجح الذي يهدي اليه الاستقراء انهم لم يتمكنوا من تبيين اوقات الخسوف

والكسوف الأبد ان تكرر هذه عشرات المرات ، ولذا لم تكن مرفقه في هذا الشأن نتيجة لدرس المنظم والتقيب العلمي ، بل نتيجة للمصادفة والمشاهدة المجرّدة عن التفكير المنبني على مقومات اذا اجتمعت لا بد ان تؤدي الى نتيجة معينة كما هو معلوم وكان علم الطب يسير على هذه الطريقة فقد علم الاختيار وطول المارسة اطباء هذه الطريقة ماذا تكون النتيجة لبعض الامراض دون ان يفقهوا لذلك سبباً تركن اليه النفس

هذه هي الطريقة التجريبية وهي وان صدقت في كثير من الاحيان لها عيوب كثيرة ، فهي توجب ان يكون كل ما يتكرر حدوثه بعد حدوث امر آخر نتيجة لازمة له ، وناشئة عنه مباشرة ، في حين قد يكون السبب الحقيقي غير ما يظن انه السبب مثال ذلك أنه لمهد قريب كان الاعتقاد السائد ان حمى الملاريا ناشئة عن هواء المستنقعات ، وذلك لما كان يرى من شديد الصلة بين وجود المستنقعات في قطر ما وتفتي هذا الداء فيه . والامثلة من هذا النوع كثيرة في عالم الطب وغيره . ومن عيوب هذه الطريقة انها تنقود الى الكسل والحلول . وتأثيرها اللبيء في الدماغ يفوق خطورة تأثير النتائج المملوطة التي قد يتوصل اليها العقل عن طريقها . وذلك ان التفكير بحسب هذه الطريقة يسير في جادة واحدة في جميع الاحوال المشابهة ، مما ينتهي بزوال المشقة التي كانت ترافق التفكير في ادواره الاولى ، على نحو ما يضل النهر في تكوّن نه اذ يكون في بده تكوّن محتاجاً الى العنف والقوة حتى يشق له طريقاً في الأودية والسهول ثم يأخذ يسير سبباً هادئاً بطيئاً . وما يرافق هذه الطريقة البطء . فالتا اذا كنا لا نود تقرير قواعد الحسوف والكسوف إلا بعد ان تتكرر هذه عشرات المرات فالتا محتاج الى وقت كثير وصبر طويل للوصول الى النتيجة التي يحصل عليها الفلكي في هذه الايام في بضع دقائق باستبان حساباته الدقيقة وقواعده الشاملة

﴿الاسلوب العلمي﴾ ما هي اركانه وما هي مقوماته ؟ هذان سؤالان اذا اجبنا عنهما تكون قد رسمنا صورة مجمة لهذا الاسلوب الذي يصح ان يطلق عليه اسلوب العلم الحديث كالاسلوب التجريبي ، يبدأ هذا الاسلوب بحاجة نفس ، او وضع يرغب في تغييره او ظاهرة يراد اجتلاؤها ، او هدف يسعى اليه . ثم يتلو هذا سلسلة من الجهود تصرف في الدرس والتقيب وجمع الحقائق التي يرجى ان تعد الطريق للوصول الى هذه الرغائب ومن ثم يرى هل فيها جمع وما درس ما يصح ان يكون اساساً لترض او تصم او نظرية او غير ذلك من ضروب الاستنتاج . فاذا وافق الى شيء من ذلك ، فالتا تنتقل الى دور التطبيق وهو ان يؤتى بالاستنتاج ، وبزى ماذا يمكن ان يحدث اذا طبق تطبيقاً فعلياً على احوال معسوسة فاذا احتبر هذا الاستنتاج وكانت نتائج الاختيار كما لتوقع فيحكم بصحة

الاستنتاج أو أنه أكثر تقيداً مما كان يظن ، أو أن الاستنتاج كان خاطئاً في ذاته . ولكي تؤمن بعبئة الزلل في التفكير على هذا الأسلوب يجب ان تتخذ حجة احتياطيات منها ان يعيد النظر في الاستنتاج اشخاص غير الذين توصلوا اليه لأول مرة ، فبمقدار ما بين النتائج التي توصل اليها الباحثون جميعاً من التشابه ويكون ذلك مقياساً لصدق الاستنتاج ومن هذه الاحتياطيات ما يدعى بالاختيار التقيد وذلك ان يجتهد ، لدى اجراء الاختبار لقياس صحة الاستنتاج ، في ابقاء جميع العوامل التي يتكون منها هذا الاستنتاج ثابتة ما عدا واحداً ، فلاحظ عندئذ نتيجة التغير في العامل الواحد بوضوح ام بمالو كان الاختبار تتغير فيه جميع العوامل في وقت واحد . وبما يحتاط به أيضاً ان يعيد الاختبار شخص غير المختبر الأول ، فينظر في النتائج التي وصل اليها كما انه يجب الا تهمل ما يظهر لنا من شذوذ في طبيعة الاختبار ، مهما يكن نوعه ومهما يكن طفيفاً فقد يكون هذا الشذوذ ناجماً عن عامل غير الذي يظن انه سبب للنتيجة الاجمالية

كما تقدم يتضح لنا ان الاختبار هو ام دامة في الاسلوب العلمي ، بل هو على الحصر الاسلوب العلمي بذاته . واهميتها تظهر جلية من ان كثيراً من النظريات التي كانت تظن انها خالدة قد دكت دكاً لدى عرضها عليه . مما يحكى عن اديسن انه كانت له ثلاثة آلاف نظرية مختلفة في الضوء الكهربائي ، وكل من هذه النظريات كان يبدو معقولاً بمقد ذاته ولكن حينما كان يسلط على احدي هذه النظريات نار الاختبار كانت تذوب كما يذوب الثلج في وهج التمار ولم يثبت على الامتحان الا نظريتان من كل هذه النظريات فتأمل

#### عوائق التفكير الصحيح

اذا شئنا تعداد هذه العوائق واحداً واحداً يضيّق بنا المقام، ولذا فأتانا سنقتصر على ذكر ما نلظنه الاممها . من هذه العوائق خطأ القضية المراد بحثها خطأ أساسياً فتد يطلب منك تمثيل ظاهرة لا أساس لها او حل معضلة مبنية على خطأ في المشاهدة ، فتنشأ تمحل من التفسير لا يوضح هذه الظاهرة، وتجرب من الحلول لحل هذه المعضلة ما يستغرق وقتاً طويلاً ، ويستند منك جهوداً كثيرة على غير طائل وكثيرون يذكرون قصة الملك شارل مع الجمعية الملكية حينما سأل اعضاءها في السبيل الذي من اجبه لا يزيد نقل السمكة المائتة في نقل الدنو المائتة فيه فشرع اعضاء الجمعية من حينهم يحثون عن السبب لهذه الظاهرة الجبية بكل جد ووصانة والناطق الآخر هو التمسك في الرأي . وضرر هذا اليب الفكرى لا يقف عند حد . ان المصاب به بصم اذنيه عما لا يوافقه من آراء ومعتقدات ، وان تكن صحيحة ، بل هو يبدو ذلك الى ان المصاب به يصعب عليه ادراك تلك الآراء والمعتقدات ادراكاً صحيحاً .

ذلك ان المتصلب في آرائه يصب عليه ادراك مواطن الضعف في هذه الآراء — على حد قولهم : عين الحب عمياء — كما انه لا يمكنه ان يدرك مواطن الاجادة في آراء غيره . وبما يصحب هذا الصيب انه يملكنا غير شاعرين به ، فقد يتوهم احدنا انه من اكثر الناس تساهلاً في آرائه ، ومن أنزلم على حكم العقل ، وهو مع ذلك تجهده من اشد المحافظين ومن اكثرهم تصلباً في آرائه . ومن هنا ، على ما اعتقد ، ما ترام في قوم يدعون الى التجديد ، وهم من اشد الناس محافظة واكثرهم جمود فكري . والتصلب في الرأي يُفسر من وجهة بيكولوجية في ان رد الفعل الواحد اذا طال تكررُه يتركز اثره في ذهن الانسان بما يحدثه من تغير في خلايا الدماغ . فتتمذر ازالة هذا الاثر . ولعل هذا هو سر المحافظة والرجعية في المتقدمين في السن

ومن عوائق التفكير الصحيح ايضاً عدم المقدرة على تأجيل الحكم في شأن من الشؤون قبل ان يندو تام الجلاء . وخطورة هذا الشرط تبدو واضحة من ان كثيراً من الاخطاء الفظيعة ، في مختلف العلوم والفنون ، كان ناشئاً من عدم المقدرة على تأجيل الحكم . وتلك طبيعة مركوزة في الانسان لا يطبق عليها صبراً . ففي الانسان شهوة عيفة ودرجة ملحّة في تفسير ظواهر الطبيعة على الشكل الذي يلائم ومستقداته وتركن اليه نفسه وليست هذه صفة الانسان الحديث فقط ، بل هي احدى صفات اجداده في اقدم اطوار حياتهم ، حينما نسبوا البرق والرعد الى غضب الآلهة ، والنظر والحصب الى رضاها وتمت مصدر آخر للخطأ في التفكير وهو الجري مع الاهواء ، فقد تكون من الزكاة وحصافة الرأي على شيء كثير ، لكن حكم العاطفة قد يصدك في مواقف كثيرة عن استتار مواهبك في الطريقة المثلى وعلى الوجه الأصح

والتحويل على ارباب الشهرة مصدر آخر للخطأ في التفكير ا فقد ترفض رأياً صائباً لاحد الاوساط لا لملق الأنا ان احد الفصحاء قال ما يخافه . وما قرأه في كتب التاريخ عمن لا قوا من الاضطهاد اشدّه ، ومن التمدب آله ، بسبب جهرم بما يخالف ما قاله اربطو وغيره من قدماء الفلاسفة والملمين ، شيء كثير

وعيب آخر هو الميل لتقدير قيمة الفكرة بنيتها . يحكى عن فوثير انه عند ما وجدت بعض الاسماك المتحجرة في جبال الالب حاج هائجه ، لظنه ان ذلك قد يكون اثباتاً لما جاء في العهد القديم بشأن الطوفان ، مما اجأه الى تفسير السبب في وجود هذه الاسماك في ذلك المكان تفسيراً مضحكاً ، وذلك بقوله : اما السباح قد اتوا بها الى هناك ولا حوال الشخص الصحية اثر اي اثر في توجيه تفكيره . فالسليم لا يمكنه ان يرى

الاشياء في وضعها الاصلي ونسبها الطيبة. وهذا مشاهد جلياً في المستشفيات والمارسات ودور العجزة . وما يذكر في هذا انما هو ان اكثر المتشاكين لم يكونوا في صحة جيدة وان طائفة كبيرة منهم كان مصاباً بماهات خلقية كالمرج والكبح والعمى وغير ذلك

ومن العيوب الشائعة في طرائق التفكير — على الاخص في هذا العصر — الحكم على الكتاب بمقدار ما يحويه من حقائق — ايما كان نوعها . وعلى هذا فكتاب يؤلف في فن السباحة او فن الطبخ يستحق من عنايتنا اضعاف ما تستحقه الياذة هوميروس وروايات شكبير وأشعار العربي ! اكلنا ليس الامر كذلك ، بل ان افضل ما ينفذه المرء من قراءة المؤلفين ليس اخترانه مواد كتبهم في الذاكرة للباهة بها ، كما يفعل عدد ليس بالقليل من مطالعي الكتب ، بل ان يتعود أساليبهم في التفكير وكيفية معالجتهم لموضوعات درسمهم — هذا إذا كانوا عن بصح الاقتداء بهم . فاذا كنت تقرأ لا ليقال عنك انك انسكابو يدياً متحركة ، وكان من تطالعهم بيدي النور ، نافذي البصار ، فأحر بثك ان تكتسب هذه الصفات منهم ، لكن بالكثير وليس بالاتقان ، كما لو أدت قضيئاً محتفظاً من آخر لا منطوية فيه ، دون ان تلمسه يد ، فتصبح طريقتهم في مهاجمة الموضوعات طريقتك ، وتطبع أساليبهم في ذهنك ، وقوتهم ، الى حد ما ، تضحي قوتك فكما انك اذا حاولت ان تترسم جباراً في مشيه فتتود الخطوط خطأً واسعاً ، كذلك القارئ الذي يتبع المؤلف الفذ يجد نفسه أوسع خطأً في عالم التفكير

وآخر ما نذكره من عيوب التفكير هو ان كثيرين لا يصنعون لتفكيرهم هدفاً جلياً ، بحيث يكون كل جهدياً ثوته مما يساعدهم على بلوغ هذا الهدف ، بل تراهم يندفون هنا تارة وتارة هنالك كالسيفنة تقاذفها هوج الرياح . فقد يس على بال أحدنا ان يكتب شيئاً ، ولكن لا يدري حول اي شيء يكتب هذا الشيء ، فيذهب بكذ الذهن ويقطب الكتب على خلاف طائل . على ان جلاء الهدف وحده لا يكفي لكي ينتفع المرء بقصى ما لديه من جهد ، فان تقدير المدى لهذا الهدف امر آخر يستحق ان يعطى من عنايتنا اكبر قسط . فالواقع ان هناك اناس لا يحسنون تقدير ملكتهم بدقة : فهم بين ان يرفقوا اهدافهم الى حد لا يكون بطوقهم ان يصلوا اليه مها جهدوا ، أو ان ينزلوها الى حد لا يستغز اقصى قوام ، ويلوح لي ان التمرين المتواصل هو خير ضامن لايقاف المرء على سعة الخيز الذي يمكنه ان يشغله في أي شأن من شؤون الحياة . وقد يؤخر التمرين الزمن الذي تستوفي فيه الكفاءة حظها من النضوج ولكنها لا بد بانفع بها حداً معيناً لا يكون لها مضطرب الا فيما هو دونه ، فلا تخطاه ابدأ